DOI: https://doi.org/10.22452/ris.vol8no1.2

Vol. 8 No. 1 (2021): 39-64

RIS Online Journal Research in Islamic Studies

UNIVERSITI MALAYA

Received: 2021-04-19 **Accepted:** 2021-04-27 **Published:** 2021-04-30

التفسير من التأسيس إلى المعاصرة

Quranic Exegesis from Its Beginning to the Contemporary

Abdullah Sabah Naser Almulla [a*]

[a] **Department of Tafseer & Hadith, College of Sharia and Islamic Studies, Kuwait University, P.O. Box, 7438 Khaldiah 72455 Kuwait.**

*** Corresponding author, Email; dr.almulla66@gmail.com**

ملخص:

يتناول هذا البحث علمَ التفسير من حيث تعريفه لغة واصطلاحاً، وموضوعه، ثم تاريخِ نشأته وتطوره، حيث يبين المراحلَ التاريخية التي مر بها هذا العلمُ العظيم، وهي مرحلة ما قبل التدوين، مرحلة التدوين، ومرحلة العصر الحديث، أو مرحلة التأسيس، مرحلة التأصيل، مرحلة التفريع ومرحلة التجديد كما يراها بعض المفسرين، بَدءاً من نشأته في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ومروراً بعهد الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والتابعين ومَن بعدهم، وانتهاءً بالعصر الحديث، موضحة من خلال ذلك كله طرقَ تفسير القرآن، كتفسير القرآن بالقرآن فبالسنة الشريفة فباللغة، والاستنباط والاجتهاد، مع ذكر مدارس التفسير القديمة، وقد حاول جمع أقوال العلماء في نشأة هذا العلم، والتوفيق بين ما تضارب فيها قدر الامكان، جامعا بين كتب المتقدمين والمتأخرين المهتمة بهذا الشأن، مذيلا ذلك كلَّه بذكر أهم كتب التفسير المتقدمة والمعاصرة التي لا يستغني عنها طالبُ العلم، متبعا في ذلك كلِه المنهجَ الاستقرائيَّ التاريخي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: التفسير، مدارس التفسير، التفسير عبر التاريخ، التفسير والتأسيس.

ABSTRACT

This study provides the definition of tafsir (interpretation of the Qur'an) both in term and language, some basic background of it's history and the precession after that. The history starts from the early days of the Prophet Muhammad (PBUH), continued by the companions (May Allah be pleased with them) and then by the successors until our modern time today. This study also explains the tools to interpret Qur'an; by means of the Qur'an, then by the means of hadith and then by what was transmitted by the Companions (God be pleased with them), and then by the words of the righteous successors. More than that, the excegitation (Istinbat), independent reasoning (Ijtihad) and the early learning-center of tafsir are mentioned too. Not to be forgotten, the student collects some narration and statement of the Islamic scholars and their argument in this field. Besides that, he shortlists some of the famous books of tafsir - both classical and contemporary - which is a must for a student of knowledge, following the study-method.

Keywords: Tafsir, Learning-centre, Tafsir in time of history, The establishment of tafsir.

المطلب الأول– التفسير:

أولاً– التفسير لغة:

لقد ورد لفظ التفسير في القرآن الكريم مرة واحدة، وأن خير من فسره هو القرآن الكريم نفسه، قال تعالى:" ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا". الفرقان:33. أي بيانًا وتفصيلاً.

هذا، وهناك تعريفات لغوية كثيرة ذكرها العلماء حول المعنى المراد من التفسير من حيث اللغة، منها على سبيل المثال وليس الحصر ما يلي:

فالجرجاني رحمه الله تعالى يعرفه بقوله: التفسير لغة مصدر من الفسر وهو الكشف والإظهار[1]، وفي لسان العرب: التفسير: البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل[2]، ويقول أبو البقاء الكفوي: التفسير هو تيسير وتوضيح اللفظ... والعبارةُ عن الشيء بلفظٍ أيسر وأسهل من لفظ الأصل.. [3]". والحاصل أن التفسير يدور من حيث اللغة حول معنى الكشف والبيان، سواء كان حسياً أو معنوياً كما هو معروف في مظانه والله أعلم.

ثانيًا– التفسير اصطلاحًا:

تعددت تعريفات المفسرين على وجه الخصوص، والمشتغلين بالدراسات القرآنية بشكل عام حول المعنى المراد من التفسير من حيث الاصطلاح. ولا شك أن معظم التعريفات التي ذكرها المفسرون ومن سار على دربهم متقاربة بل متشابهة إلى حد كبير مما يوفر لنا جهدا كبيرا في عدم الحاجة إلى ذكر جميعها، والاكتفاء بأشهرها وأكثرها جمعا ومنعا.

يعرف الزركشي رحمه الله تعالى التفسير من حيث الاصطلاح بقوله: بأنه" علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه[4]".

ويعرفه صاحب البحر المحيط بأنه" علم يبحث في كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمات لذلك.. [5]".

---

[1] – علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، **كتاب التعريفات**، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، (1/ 63).

[2] – محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ (5/ 55).

[3]– أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ) ، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت (ص260).

[4]– أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) ، **البرهان في علوم القرآن**، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1376 هـ - 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه (1/ 13).

[5]– أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ) ، **البحر المحيط في التفسير**، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ (1 / 26).

ويعرفه العلامة التونسي الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى بقوله: التَّفْسِيرُ فِي الِاصْطِلَاحِ: هُوَ اسْمٌ لِلْعِلْمِ الْبَاحِثِ عَنْ بَيَانِ مَعَانِي أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَمَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا بِاخْتِصَارٍ أَوْ تَوَسُّعٍ[6].

ولا شك أن هذه التعريفات التي ذكرناها متقاربة من حيث المعنى إلى درجة يمكن القول بأن الاختلاف بينها لفظي وليس حقيقيا، فالتفسير هو بيان معنى الآيات القرآنية، وشأنها وقصتها، والأسباب التي نزلت فيها بمعنى ظاهر من غير تأويل ولا تحريف ولا تعطيل.

هذا، ويقول الإمام ابن عاشور رحمه الله تعالى فيما إذا كان التفسير علما حقيقة أو تجاوزا: وفي عد التفسير علما تسامح إذ العلم إذا أطلق، إما أن يراد به نفس الإدراك، نحو قول أهل المنطق: العلم إما تصور وإما تصديق، وإما أن يراد به الملكة المسماة بالعقل وإما أن يراد به التصديق الجازم وهو مقابل الجهل، وهذا غير مراد في عد العلوم، وإما أن يراد بالعلم المسائل المعلومات وهي مطلوبات خبرية يبرهن عليها في ذلك العلم وهي قضايا كلية، ومباحث هذا العلم ليست بقضايا يبرهن عليها فما هي بكلية، بل هي تصورات جزئية غالبا لأنه تفسير ألفاظ أو استنباط معان. فأما تفسير الألفاظ فهو من قبيل التعريف اللفظي وأما الاستنباط فمن دلالة الالتزام وليس من القضية[7].

ثالثًا– موضوع التفسير:

من المعلوم أن لكل علم موضوعه الخاص به، ومجاله الذي يتحرك فيه الباحث ويتم انجاز البحث فيه في دائرة ذلك الموضوع وذاك المجال، وعلم التفسير مثله كمثل أي علم آخر له موضوعه الخاص به ومجاله الذي يدور في فلكه، فما هو موضوعه وما هو مجاله.

إن موضوع علم التفسير ومجاله هي الروايات الصحيحة المسندة عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم التي تشكل الدعائم الأساسية للتفسير، قال تعالى:" وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" (النحل:44).

ومن مجال التفسير أيضًا: التفسير اللغوي للكلمات القرآنية التي اتفق عليها أهل اللغة من غير اختلاف فيما بينهم[8]. أو بتعبير آخر فالتفسير اللغوي: هو بيان معاني القرآن بما ورد في لغة العرب[9]. وهذا يشمل كل مصادر البيان في التفسير: كالقرآن والسنة وأسباب النزول وغيرها، وهو ما كان طريقُ بيانه عن لغة العرب. كما أن المراد بما ورد في لغة العرب: ألفاظها وأساليبُها التي نزل بها القرآنُ.

فإن فهم اللغة العربية شرطٌ أساسي لفهم القرآن وتفسيره وحمل الألفاظ على معانيها التي جاءت بها، يقول الإمام الشاطبيُّ رحمه الله تعالى: لابّد في فهم الشريعة من اتباع معهود الأمّيّين، وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، فإن كان للعرب في لسانهم عرفٌ مستمرٌّ فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة..[10].

---

[6]– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير** «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ، (12/1).

[7]– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير** «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ، (12/1).

[8]– انظر إلى **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث**، للأستاذ الدكتور فضل عباس (1/ 110).

[9]– انظر إلى **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**، د. مساعد بن سليمان الطيّار (ص 38).

[10]– إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ)، **الموافقات**، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م، (2 / 131).

ويقول العلامة الطاهر بن عاشور رحمه الله تعالى: وموضوع التفسير: ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه وما يستنبط منه، وبهذه الحيثية خالف علم القراءات لأن تمايز العلوم– كما يقولون– بتمايز الموضوعات وحيثيات الموضوعات[11].

المطلب الثاني – التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ومنهجه فيه:

منهج النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن الكريم يرتكز إلى عدة قواعد كلية، وهو بيان معنى آية بدلالة آية أخرى[12]، أو تفسير جملة بدلالة جملة أخرى، أو توضيح لفظة مُشكلة، أو شرح مُبهمة مما يتعين فهمها على الوجه الصحيح. فالنبي صلى الله عليه وسلم – وهو المبلغ عن الله سبحانه وتعالى – كان إذا سُئل عن القرآن مما أشكل معناه على الصحابة رضوان الله عليهم فسّر لهم ما يحتاجون إليه بالقدر المطلوب من غير اطناب ولا إيجاز، بادئاً لهم تفسيره من القرآن ليُشرع لهم بذلك منهجاً وهو تفسير القرآن بالقرآن، وذلك أن سور القرآن ليست محددة بوحدة موضوعية معينة، بل إن الآيات منها فيها من الشرائع والأحكام والقصص والأحداث ما يجعل النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ من هذا الأسلوب منهجاً ليُفسّر بعضه البعض، قال تعالى: " الر كتابٌ أُحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير" (هود 1).

أولاً – تفسير القرآن بالقرآن.

ومن أمثلة تفسير القرآن بالقرآن: قول الله تعالى في سورة النساء: " وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها ويستهزئ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره إنكم إذا مثلهم " (النساء 140) ، ففي هذه الآية حرم الله القعود مع الكافرين والمنافقين الذين يخوضون في آيات الله عز وجل، وبيّن سبحانه في قوله: "وقد نزل عليكم في الكتاب" دلالة على تفسير هذه الآية بآية أخرى وهي في موضع آخر بيّنه الله تعالى في سورة أخرى، وهو قوله تعالى: " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره وإما يُنسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين" وذلك بسورة الأنعام.

ثانيًا – تفسير القرآن بالسنة الصحيحة الصالحة للحجية:

الدليل على وجوب تفسير القرآن بالسنة قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا إنني أوتيت القرآن ومثله معه[13] "، وقال الإمام ابنُ تيمية عن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن بالسنة: (فإن أعياك ذلك — تفسير القرآن بالقرآن — فعليك بالسنة، فإنها شارحةٌ للقرآن وموضحة له)[14].

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة: ما روى الإمام أحمد في مسنده: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله: كيف الفلاح بعد هذه الآية " ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به "؟ فكل سوء عملناه جزينا به؟ فقال النبي صلى

---

[11]– محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير** «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ، (12/1).

[12]– أ. د. مساعد بن سليمان الطيار، **التحرير في أصول التفسير**، الطبعة الخامسة 1440هـ / 2019م، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، ص (42).

[13]– **أخرجه أبو داود** عن المقدام بن معد يكرب الكندي رضي الله عنه في كتاب السنة، حديث رقم 4604 وهو صحيح.

[14]– انظر إلى المصدر في هذا البحث ص 6.

الله عليه وسلم: " غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض؟ ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست تُصيبك الألواء"؟ قال: بلى، قال:" فهو مما تجزون به [15] ".

وروى مسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: " ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به " شق ذلك على المسلمين، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه، فقال: " قاربوا وسددوا، ففي كل ما يصاب به العبد كفارة، حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها[16]".

المطلب الثاني – التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم ومنهجهم فيه:

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتورعون عن تفسير القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وفي حضرته، أما أنه وقد انتقلت المسؤولية إليهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وصار من واجبهم القيام بتفسير ما تحتاج إليه الأمة لفهم القرآن الكريم، شمروا عن سواعدهم، وبينوا القرآن بما فهموه وتعلموه من مدرسة خير البرية عليه الصلاة والسلام. وإليك منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير.

أولاً – تفسير القرآن بالقرآن:

لقد صدق الصحابة رضي الله عنهم ما عاهدوا الله عليه من الثبات على الدين، ونصرته، وصدقوا الله كذلك في علمهم وتقواهم وتبليغهم كتاب الله، ومن أمثلة تفسيرهم القرآن بالقرآن: تفسير قوله تعالى: "والسقف المرفوع" (الطور:5)، قال خالد بن عرعر: سمعت عليّاً يقول: السقف المرفوع: هو السماء، وقال: " وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن ءاياتها معرضون[17]" (الأنبياء:32).

ثانياً – تفسير القرآن بالسنة:

لم يكن يخفى على الصحابة رضي الله عنهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"، من هنا فقد أدركوا أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم، فضلاً عن أنه لا يجوز تركها بأي حال من الأحوال في حال ثبوتها وصحتها، ووجوب الرجوع إليها في تفسير القرآن.

ومن أمثلة تفسير القرآن بالسنة: ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعن الله الواشمات، والمستو شمات، والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله.. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد، يقال لها أم يعقوب، فجاءت، فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيتَ وكيتَ؟ فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومن هو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين، فما وجدتُ فيه ما تقول؟ قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. أما قراتِ قوله تعالى: " ومآ ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا" (الحشر:7). قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه. قالت: فإن أهلك يفعلونه؟ قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت، فلم تَرَ من حاجتها شيئاً! فقال: لو كانت كذلك ما جامَعَتْنا! [18]". فالأخذ بالسنة هو الأخذ بالقرآن في الحقيقة.

ثالثاً – تفسير القرآن باللغة العربية:

---

[15]– **مسند الإمام أحمد** 1 / 11 وهو صحيح.

[16]– أخرجه **مسلم** (2547) و**الترمذي** (3038) .

[17] **تفسير الطبري** (27 / 18) .

[18]– أخرجه البخاري (4886) ومسلم (2125)

تفسير القرآن باللغة هو مسلك السابقين من الصحابة جميعًا، وهو أحد أوجه التفسير الأربعة التي قالها ابن عباس رضي الله عنهما: " التفسيرُ على أربعة أوجه: تفسيرٌ تعرفه العربُ من كلامها.. [19]". قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله:" لا أوتي برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالا [20]".

ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم هم أمناء على أنفسهم في التفسير؛ وأنهم شاهدوا التنزيل، وحضروا مجالس النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم عرب خلص، فتفسيرهم القرآن باللغة العربية طريقة متواترة، وحجةٌ نعتد بها في تفسيرنا لكتاب الله عز وجل، قال تعالى: " بلسانٍ عربي مبينٍ" (الأحقاف:12). فعن ابن عباس قال: كنت لا أدري ما فاطر السماوات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما (لصاحبه): أنا فطرتها، أنا بدأتها. وقال الضحاك: كل شيء في القرآن فاطر السماوات والأرض: فهو خالق السماوات والأرض.[21] وهذه من أمثلة تفسير القرآن باللغة العربية. ، "إن الاسلوب القرآني مختلف عن غيره، فلا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن ان يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن[22].

وقال الإمام الشاطبي: " من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة"[23]، فالسبيل إلى إيجاد حلاوة فهم القرآن، وقطف ثمار معانيه هو بإدراك معاني لغة العرب.

رابعًا – تفسير القرآن بالاجتهاد:

ومن أمثلة تفسير الصحابة رضوان الله عليهم القرآن باجتهادهم: تفسير علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث قال: " إن الحذر لا يرد القدر، وإن الدعاء يرد القدر، وذلك في كتاب الله: " إلا قوم يونس لمآ ءامنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين[24]" (يونس:98).

خامساً – أشهر مدارس التفسير في عهد الصحابة:

آثار الصحابة رضي الله عنهم باقية، نتعلم مما نقلوه وتركوه لنا من العلم النافع، فهم أهل التفسير وأئمته لمن بعدهم، بلغوا رسالات ربهم، وأدوا الأمانة التي كلفوا بها وعلى رأسها أمانة تبليغ القرآن الكريم بكل ما تعنيه الكلمة من معان، وكانوا مراجع لغيرهم في التفسير مثل عبد الله بن عباس، وأُبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم، حيث كان لكل منهم مدرسة، وتلاميذها هم خير القرون.

1– مدرسةُ التفسير بمكة: إمامُها (ابن عباس رضي الله عنهما)

---

[19]– تفسير الطبري (1/ 75)

[20]– **البرهان في علوم القرآن** للزركشي (1 / 295)

[21]– **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير (ص434).

[22]– قال ذلك د. فيليب حتي في كتابه: الإسلام منهج حياة، ص 62.

[23]– **الموافقات في أصول الشريعة** (64/2)

[24]– **تفسير ابن أبي حاتم** 4/ 1213.

قال ابن تيمية: "وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة، لأنهم أصحاب ابن عباس.. [25]". فكان يبلغهم ما علِمهُ من تفسير كتاب الله عز وجل، ويوضح لهم ما أُشكل عليهم، فكانوا يعون ما بلغهم به ويبلغونه، ولذلك تميزت هذه المدرسة بخصائص كثيرة ليس هنا محلها.

ومن أشهر رجال هذه المدرسة: سعيد بن جبير، فأخذ القراءة عن ابن عباس عرضًا وسمع منه التفسير، فكان إمامًا ثقة حجة، عالما بالقراءات، ومجاهد بن جبر، وحسبك بمجاهد إذا أتى من التفسير، فكان فقيهًا، ورعًا، وعكرمة مولى ابن عباس، فكان على مبلغ من العلم، وخاصة في التفسير، ولا يخفى من التابعين في هذه المدرسة: طاووس بن كيسان، وعطاء بن أبي رباح، رحمهم الله جميعًا.

2- مدرسةُ التفسير بالمدنية: إمامُها (أُبي بن كعب الأنصاري رضي الله عنه)

ولا يخفى أن مقر أكثر الصحابة رضي الله عنهم كان في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أُبي بن كعب من أعلم الصحابة في المدنية بعلم التفسير، فتلمذ على يديه التابعون، ومن أشهر من رجال هذه المدرسة: زيد بن أسلم، وأبو العالية ومحمد بن كعب القرظي، وقد أجمع عليهم أصحاب الكتب الستة جميعًا وكفى بذلك شهادة لهم، وغيرهم كثير.

3- مدرسةُ التفسير بالكوفة ": إمامُها (عبد الله بن مسعود رضي الله عنه)

قامت مدرسة التفسير بالعراق " بالكوفة تحديدًا " على يدي ابن مسعود رضي الله عنه، وهو الجبل في علم التفسير، الذي قال كان مُعلمًا لأهل الكوفة بأمر من عمر الفاروق رضي الله عنه، وعُرف عن أهل العراق أنهم أهل الرأي، ففتح لهم ابن مسعود رضي الله عنه بابًا في كيفية استنباط مسائل الخلاف الشرعية، وفِقًا على ما جاء من كتاب الله وسنه نبيه صلى الله عليه وسلم، فكان لديهم الأساس في التفسير بالرأي والاجتهاد، ومن أشهر رجال هذه المدرسة: علقمة بن قيس الذي كان لا يعلم ابن مسعود شيء إلا وهو يعلمه، ومسروق فهو الثقة الذي لا يسأل عنه، والأسود بن يزيد الصائم الزاهد ، ومُرَّة الهمداني الورع الصالح، وعامر الشعبي الفقيه الشاعر، والحسن البصرى الورع في الوعظ كلامه يشبه كلام الأنبياء، وقتادة بن دعامة السدوسي الحافظ إمام الحديث الحجة، رحمهم الله جميعًا.[26] فهذه هي المرحلة الأساسية التي نشأ فيها علم التفسير نشأة صحيحة، وتأسست فيها العروة الوثقى العلمية التي إن زاغ عنها المفسر هلك، مالم يكن اجتهاده ضمن حدود هذه النشأة القوية.

وضمن هذه المرحلة (مرحلة التأسيس) التي هي من القرون الخيرية الثلاثة، سنذكر عهد التابعين الذي تميز باتجاهين واضحين في التفسير.

المطلب الثالث – التفسير في عهد التابعين رضي الله عنهم ومنهجهم فيه:

أولاً – خط التفسير في عهد التابعين:

المسالة الأولى – خط التفسير بالمأثور:

جاء في المعجم الوسيط: " الأثر: ما خلّفه السّابقون، والخبرُ المرويٌ والسُّنة الباقية. والمأثور: ما وَرِثَ الخَلَفُ عن السّلَف[27]".

---

[25]- شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، **مقدمة في أصول التفسير** (ص23 – 24).

[26]- الدكتور حسن الذهبي، **التفسير والمفسرون** (1 / 76 – 95).

[27]- **المعجم الوسيط** (1/ 5-6).

التفسير بالمأثور هو متوارثٌ من مأثورٌ، وعليه فليست المصادرُ النقلية من استمداد علم التفسير، كما يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى: " واعلم أنه لا يعدُّ من استمداد علم التفسير الآثار المرويّة عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير آيات، ولا ما يروى عن الصحابة في ذلك، لأن ذلك من التفسير لا من مَدَدِه، ولا يعدُّ أيضًا من استمداد التفسير ما في بعض آي القرآن من معنىً يُفسرُ بعضًا آخر منها، لأن ذلك من قبيل حمْلِ بعض الكلام على بعض، كتخصيص العموم، وتقييد المطلق، وبيانِ المجمل، وتأويل الظاهر، ودلالة الاقتضاء، وفحوى الخطاب، ولحنِ الخطاب، ومفهومِ المخالفة[28]". وكان الاعتماد في هذا الخط من التفسير على إيراد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أقوال أصحابه رضي الله عنهم، والتابعين لهم، فكان يوردون طرق الرواية في ذلك وإن كانت مكررة بإسنادها، وقصد هذا الاتجاه هو نقل الروايات بأسانيدها، دون تعليق عليها، "ولذلك ذهب أكثر العلماء إلى أن التفسير بالمأثور هو: ما رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان موقوفًا على الصحابة رضوان الله عليهم، وما جاء عن التابعين رضوان الله عليهم[29]".

كذلك مما يجب توضيحه في هذه المسألة: أن التفسير بالمأثور ينبغي فيه عدم اعتمادِ الإسرائيلياتِ المرويّة، وتنزيهه منها سواء وافقت ما عندنا أو خالفته، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذ أذن بالتحدث عنهم أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم، فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم من أنْ نقرنها بكتاب الله ونضعها منه موضع التفسير والبيان؟! [30]"ومن التفاسير المطبوعة التي سلكت هذا الاتجاه الأثري: تفسيرُ مجاهد، وتفسيرُ الحسن البصري، وتفسيرُ السدّي الكبير، وتفسيرُ قتادة، وتفسيرُ مقاتل، وتفسيرُ سفيان الثوري، وتفسيرُ عبد الرزاق الصنعاني[31].

المسألة الثانية – خط التفسير البياني:

جاء في المعجم الوسيط: (الْبَيَان) الْحجَّة والمنطق الفصيح وَالْكَلَام يكْشف عَن حَقِيقَة حَال أَو يحمل فِي طياته بلاغا وَعلم يعرف بِهِ إِيرَاد الْمَعْنى الْوَاحِد بطرق مُخْتَلفَة من تَشْبِيه ومجاز وكناية[32].

وهذا الخط نستطيع أن نطلق عليه أنه هو التفسير اللغوي البياني، كإيضاح فكرة هذا الاتجاه الممتلئ بالكنوز، التي لا سبيل إلى الوصول إلى عمقها إلا بإدراك لغة القرآن، فكان أصحابه يفسّرون بعض كلمات القرآن تفسيراً لغوياً بيانياً، بحيث يوردون الكلمة القرآنية في اللغة، ويعرضون اشتقاقها وتصريفها، ويعقبون على معانيها بذكر الشواهد الشعرية.

وأرست الأسس المنهجية في هذا الخط معالمه، من قِبل المفسرين الأعلام، كالفراء وأبي عبيدة والكسائي والأخفش وابن قتيبة والزجاج، فهم من أسس هذا المنهج اللغوي في التفسير، ومن التفاسير اللغوية التي تمثلُ هذا المسلك: مجازُ القرآن لأبي عبيدة معْمر بن المثنى، ومعاني القرآن لأبي زكريا الفراء، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ومعاني القرآن للأخفش.

فهؤلاء علماء البيان، ومن يسمع أسماء كتبهم، يظن لأول وهلة أنها تعالج المجاز وهو البيان، لكن بعد القراءة والمطالعة يتعرف على الحقيقة ويتضح له القصد، بأن مسلكهم بيان معنى الآية، من قولهم جزت الشيء أو جزت الطريق فهو انتقالهم من اللفظ إلى المعنى

---

[28]- الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير (27/1).

[29]- أ. د. فضل حسن عباس، **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث** (183/1).

[30]- **عمدة التفسير**، (1 / 14- 15).

[31]- د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، **تعريف الدارسين في مناهج المفسرين** (ص38).

[32]- **المعجم الوسيط** (80/1).

الحقيقي المراد به، وعلى سبيل المثال نجد أبا عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) يحدثنا في مواضع كثيرة عن الكناية، والتشبيه، والمجاز العقلي، كما نجد عن الاستعارة في كتابه (النقائض) وإن لم يسمها باسمها، وإنما يعبر بكلمة النقل، ونحن نعلم أن الاستعارة ليست إلا نقلاً للكمة من الذي وضعت له إلى معنى آخر.

ومن أمثلة المجاز الذي فيه حُذف واضمار: قوله تعالى: " واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها" أي: وأسأل أهل القرية، ومن في العير، وكذلك ما نظمه كثيراً من مباحث علم المعاني، فقد أشار إلى مباحث الخبر والإنشاء، وخروج بعض أدوات الاستفهام – وهو من قسم الإنشاء – عما وضعت له، كما أشار إلى التقديم والتأخير، والالتفات والتغليب، وغير ذلك مما لو تأملته وجدته فيه كثيراً مما قرره العلماء فيما بعد. فذلكم أبو عبيدة البحر في علمه، وذكره مثلاً ولا يخفى قدر علم من أسسوا هذا المنهج معه من العلماء.

فيتبين لنا بذلك أن هذا الخط من التفسير مهم، كما برزت لنا أهمية التفسير بالمأثور في عهد التابعين رحمهم الله تعالى.

المطلب الرابع – التفسير في عهد التدوين

أولا – مدرسة الطبري ومنهجه في التفسير:

1 – التفسير بالمأثور:

بعد مرحلة التأسيس في القرنين السابقين، كانت المرحلة الثالثة وهي مرحلة (مدرسة الطبري) العريقة التي رسخت الأصول التفسيرية، وأوضحت السبيل لكل من عمد إلى هذا العلم الغزير، فمدرسة الطبري هي مدرسة إكمال البناء الوثيق المرتبط بأفضل القرون، صاحب (تفسير الطبري) هو: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الإمام أبو جعفر الطبري، الإمام الحافظ لكتاب الله، العالم بالقراءات، البصير بالمعاني، الفقيه بالأحكام، العالم بالسنن كلها، والعارف لأقوال الصحابة والتابعين من بعدهم[33]، فلا عجب أن يكون هو التفسير الذي لم يصنف مثله أحد!.

(جامع البيان عن تأويل آي القرآن) الأنموذج في التفسير بالمأثور من الكتب المسندة، وحين نقول التفسير بالمأثور نعني به: ما صح عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وما صح من أقوال الصحابة والتابعين، فلا يُفسر القرآن بما يناقض أقوالهم، ولا ما كان في تفسيره تعارض مع لغة العرب، وأن لا يكون التفسير عن هوى نفس أو انتصاراً لعقيدة، فاعتنى ابن جرير الطبري بجمع الروايات المأثورة في التفسير، من الأحاديث وأقوال الصحابة وأقوال التابعين وتابعي التابعين، فجمع تفسير القرآن كاملاً على ترتيب المصحف، ذاكراً الأقوال المأثورة في الآيات، وكانت أسانيده مثبتة في تفسيره، والتفسير بالمأثور له قواعد أساسية لا يصح التفسير إلا بها وهي كالآتي[34]:

1- تفسير القرآن بالقرآن هو الأساس لما بعده من التفسير بالمأثور.
2- تفسير القرآن بالسنة يلي تفسير القرآن بالقرآن في المنزلة والأهمية.
3- بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للآية وتفسيره لها مقدم على أيّ بيانٍ وتفسير.
4- ألفاظ القرآن محمولةٌ على الحقيقة الشرعية، فإن لم تكن فالحقيقة العرفية، فإن لم تكن فالحقيقة اللغوية.
5- قول الصحابي في التفسير مقدّم على قول من بعده.
6- قول التابعي في التفسير مقدّم على قول من بعده.

---

[33]- انظر إلى **البداية والنهاية**، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، (11/ 166).

[34]- انظر إلى **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين**، د. صلاح الخالدي (209 – 223).

7- لا يؤخذ التفسير بالمأثور إلا بعد ثبوته وتخريجه.

8- الجمع بين الأقوال المختلفة عن الصحابة والتابعين.

9- عدم اعتماد الإسرائيليات إلا ما صحّ شاهده عندنا.

فكما سمى كتابه بجامع البيان عن تأويل آي القرآن: فهو قاصدٌ لذلك، لما جمعه من أقوال العلماء، واجتهاد الصحابة والتابعين، ومن ترجيح الراجح من الأقوال المأثورة، واستنباط الصحيح من الأدلة والاستدلال بها في الأحكام، فامتاز تفسيره عن جميع من سبقه في التفسير بالمأثور. وقال ابن تيمية رحمه الله عن تفسيره:

" وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحُّها تفسيرُ محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة.. "[35] ، وإن شاع أن تفسيره تفسيراً بالمأثور فحسب، فإنا ننفي ذلك فهو أيضاً كان تفسيراً بالرأي بل هو النواة الأولى في ذلك، وربما صُنف تفسيراً بالمأثور لكثرة رواياته فحسب، وأن من البديهي أن لا يطلق عليه تفسيراً بالمأثور فحسب؛ فكانت ترجيحاته للأقوال من ضمن تفسيره، وكفى بذلك بياناً، فقد سلك الخطين معاً، وإن غلب على تفسيره النقل.

2: الدراسات اللغوية للقرآن الكريم

لا يخفى على من قرأ أو قلب صفحات جامع البيان أن يلاحظ إلمام ابن جرير باللغة العربية، فإن تفسير القرآن باللغة هو قاعدة أساس في منهجه رحمه الله، فكان احتكامه إلى لغة القرآن جليّاً بين سطور الجامع، فالتأصيل الذي سار عليه في منهجه كان مرتباً على ثلاث: الأثر، واللغة، والاستنباط.

ونحن بصدد التعرف على " تفسيره القرآن باللغة "، فقد سمى كتابه (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) فالتأويل عنده: هو بيان المعاني التي فيها اختلاف وتحتملها معاني ألفاظ القرآن، فكثير من تفسيره استمده من التفاسير اللغوية بعد التفاسير بالمأثور لمن سبقه بها، فجعل الطبري التفسير باللغة والبيان وفق القواعد العربية فلا يعدل عن نحوها ولا صرفها ولا بلاغتها ولا بيانها ولا اشتقاقها ولا تصريفها وشواهدها، فلا غرابة بذلك فهو المتبحر المتذوق لأساليبها، ويعدّ كتابه مثالاً للتفسير اللغوي في القرن الرابع.

وقد نص ابن جرير في مقدمته على وجوه تأويل القرآن، فذكر وجهين لها وقال في الوجه الأخير" ..ما كان علمه عند أهل اللسان الذب نزل به القرآن، وذلك علم تأويل عربيتهِ وإعرابهِ لا يُوصلُ إلى علم ذلك إلا من قِبلِهِم"[36]، ثم قال بعد ذلك وأثنى على من سار بوجه تأويل القرآن كما قال ووصفه بأنه أحق المفسرين إصابة للحق وقال: " وأوضحهم برهانًا مما كان مدركاً علمه من جهة اللسان: إما بالشواهد من أشعارهم السائدة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة.. "[37]، فضابط التفسير باللغة: هو عدم خروج المفسر باللغة عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة.

ونضرب الآن الأمثال حتى يتضح لنا مسلك الطبري في دراساته اللغوية للقرآن، ومثال ذلك: قال تعالى: " فإن للذين ظلموا ذنُوباً مثل ذنُوب أصحابهم فلا يستعجلون" (الأحزاب:59).

يقول تعالى ذكره: فإن للذين أشركوا بالله من قريش وغيرهم ذنُوباً، وهي الدلو العظيمة، وهو السجل أيضاً، إذا ملئت أو قاربت الملء، وإنما يريد بالذّنوب في هذا الموضع: الحظ والنصيب، ومنه قول علقمة بن عبدة:

---

[35]- **فتاوى ابن تيمية** (13/ 361-385).

[36]- انظر إلى **تفسير الطبري**، بتحقيق: شاكر (1:3)

[37]- المصدر السابق (1:93).

وفي كل قوم قد خبطت بنعمةٍ فحقَّ لشأسٍ من نداك ذنُوبُ

أي: نصيب، وأصله ما ذكرت، ومنه قول الراجز: لنا ذنُوبٌ ولك ذنُوبُ فإن أبيتم فلنا القلِيبُ

ومعنى الكلام: فإن للذين ظلموا من عذاب الله نصيباً وحظاً نازلاً بهم، مثل نصيبِ أصحابهم الذين مضوا من قبلِهم من الأمم على منهاجهم، من العذاب، فلا يستعجلون"[38]، فما قرره ابن جرير أن اللغة هي الأصل في تفسير القرآن، وتحمل الألفاظ على الأشهر من معانيها في اللغة، وليس على الضعيف أو الشاذ.

3 – الاستنباطات:

وضحنا في المبحث الأول المنهجية التي بانت ملامحها السليمة في صفحات جامع البيان، فخطوات مرحلة منهج التفسير الأثري النظري لديه كالآتي: تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسير القرآن بالسنة الصحيحة، ثم تفسير القرآن بأقوال الصحابة، والتابعين، ثم تفسير القرآن باللغة، ثم استنباط المعاني والآراء والتأويلات المستمدة من الآيات. ولكي يتضح ما قلناه أكثر نذكر بعض الأمثلة التي تبين آخر خطوات هذه المرحلة المباركة، وهي الثمرة لما قبلها من القواعد المنهجية في استنباط المعاني والآراء والتأويلات المستمدة من الآيات، لنضع الحروف على نقاطها:

1- قال تعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ) (البقرة:144)

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى: اختلف أهل التأويل في المكان الذي أمر الله به محمدا صلى الله عليه وسلم، أن يولي وجهه إليه من المسجد الحرام. فقال بعضهم: القبلةُ التي حُوِّل إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وعناها الله تعالى ذكره بقوله: " فلنولينَّك قبلة تَرْضاها "، حيالَ ميزاب الكعبة. وقال آخرون: بل ذلك البيت كله قبلةٌ، وقبلةُ البيت الباب. وذكر إسناد الروايتين، كلٌ في موضعه، ولكن الطبري ورغم علمه بالمعنيين السابقين للآية، إلا أنه ذهب إلى معنى أخر يراه أرجح من السابقين حيث يقول: " والصواب من القول في ذلك عندي ما قال الله جل ثناؤه: "فوَلِّ وجهك شَطر المسجد الحرام"، فالمولِّي وجهه شطرَ المسجد الحرام، هو المصيبُ القبلةَ. وإنما عَلى من توجه إليه النيةُ بقلبه أنه إليه متوجِّه، كما أن على من ائتمّ بإمام فإنما عليه الائتمام به، وإن لم يكن مُحاذيًا بدنُه بدنَه، وإن كان في طَرَف الصّفّ والإمام في طرف آخر، عن يمينه أو عن يساره، بعد أن يكون من خلفه مُؤتمًّا به، مصليًا إلى الوجه الذي يصلّي إليه الإمام. فكذلك حكمُ القبلة، وإنْ لم يكن يحاذيها كل مصلّ ومتوَجِّه إليها ببدنه، غير أنه متوجِّه إليها. فإن كان عن يمينها أو عن يسارها مقابلَها، فهو مستقبلها، بعُد ما بينه وَبينها، أو قَرُب، من عن يمينها أو عن يسارها، بعد أن يكون غيرَ مستدبرها ولا منحرف عنها ببدنه ووَجهه"[39]، وبهذا يكون معنى الآية: ول يا محمد وجهك نحو المسجد الحرام قبلة لك ولأمتك، ونأخذ بذلك حكماً وشرطاً من شروط صحة الصلاة أن نتوجه إلى القبلة، في الفرضية والنافلة، ومن هنا أخذ الاعتبار بتوجهنا لقبلة إبراهيم عليه السلام.

2- قال تعالى: (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (هود:46)

يقول الإمام الطبري رحمه الله تعالى: اختلف أهل التأويل في معنى قوله: (ليس من أهلك)، فقال بعضهم: معناه: ليس من ولدك، هو من غيرك. وقال آخرون: معنى ذلك: (ليس من أهلك) الذين وعدتك أن أنجيهم. وبعد أن ذكر إسناد الروايتين، كلٌ في موضعه، رجح بين القولين بقوله: "وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: تأويل ذلك: إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم، لأنه كان

---

[38]– **تفسير الطبري**، ط: الحلبي (27 :13 – 14).

[39]– ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن** (179/3).

لدينك مخالفًا، وبي كافرًا = وكان ابنه لأن الله تعالى ذكره قد أخبر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه ابنه فقال: (ونادى نوح ابنه) ، وغير جائز أن يخبر أنه ابنه فيكون بخلاف ما أخبر. وليس في قوله: (إنه ليس من أهلك) ، دلالةٌ على أنه ليس بابنه، إذ كان قوله: (ليس من أهلك) ، محتملا من المعنى ما ذكرنا، ومحتملا أنه ليس من أهل دينك، ثم يحذف "الدين" فيقال: (إنه ليس من أهلك) ، كما قيل: (واسأل القرية التي كنا فيها)، [سورة يوسف: 82] "[40]، ويتبين لنا بذلك أن الهداية بيد الهادي عز وجل فقط، فلا تنفع قرابة وإن كانت من أشد القربات للإنسان، فضرب الله لنا المثل بنبينا نوح عليه السلام وابنه، ليرشدنا إنه اذا حل العذاب فلا تنفعُ نفسٌ إيمانُها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، وكلٌ آتيه فرداً، ولا يظلم ربك أحداً.

3- (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (إبراهيم: 27)

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله: (يثبت الله الذين آمنوا) ، يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم (بالقول الثابت)، يقول: بالقول الحق، وهو فيما قيل: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمدًا رسول الله. وأما قوله: (في الحياة الدنيا)، فإن أهل التأويل اختلفُوا فيه:

فقال بعضهم: عنى بذلك أن اللهَ يثبّتهم في قبورهم قبلَ قيام الساعة. وقال آخرون: معنى ذلك: يثبت الله الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا، وهو "القول الثابت" "وفي الآخرة"، المسألةُ في القبر.

واستنبط أبو جعفر من الآيات والتأويلات، ورجح قائلاً: "والصواب من القول في ذلك ما ثبتَ به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك، وهو أنّ معناه: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) ، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم = (وفي الآخرة) بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم."[41] فما أجل معنى هذه الآيات العظيمة، كيف أن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، هي التي يعيش المؤمنون عليها، ويثبتهم الله عليه في قبورهم، أيوجد بعد ذلك نعمة أعظم؟

وهنا يتبين لنا أن الطبري فسر الآية، من خبرٍ ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد الاستنباط ودقة النظر وعمق الاجتهاد.

وهكذا كان منهج إمام المفسرين، أي الاعتماد على الفهم الدقيق لمحمولات الألفاظ، ثم يحاول استنباط الثمرات من إعمالِهِ لفكره، ومنهجيته التي كانت ضوء النور للتائهين في ظلمات البحث عن الخط الأول في تفسير كتاب الله عز وجل العزيز.

فالروائع جامع البيان، أوضحت ملامح المعرفة والحقيقة لإمام جليل لا يخفى عليه حسن فهم الآيات وتوجيهها، وجمعه بين اللغة والأثر والنظر، والتزامه بأحسن طرق التفسير، وترجيحاته الصائبة، وتوسعه في ذكر الآراء، وإيراده القراءات، وتوفيقه بين المنقول والمعقول، وتقريره للقواعد والأسس في التفسير. ومن المفيد لمن أراد أن يعرف الوجوه التفسيرية أن يطلع على تفسير الطبري، فيعدُ تفسيراً فقهياً، وتفسيراً نحوياً، وتفسيراً لغوياً وبلاغياً وإن قلت البلاغة فيه، وتفسيراً إجمالياً، وتفسيراً تفصيلياً، ووجهه العام تفسيراً بالأثر. فلا خسارة أن تقضى الأوقات، وتبنى الأسس الصحيحة لتعلم العلم الذي ينتفعُ به في هذا التفسير الذي خلفه ابن جرير الطبري رحمه الله.

المطلب الخامس – مدارس التفسير بعد الطبري

أولاً – مدرسة التفسير بالمأثور:

[40]– ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن** (15/ 346).

[41]– ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن** (16/ 602).

فالمأثور من التفسير هو ما اعتمد ناقله صحيح المنقول والآثار، فلا اجتهاد في تفسير آية ولا بيان فيما نقل منه، فمُهمة هذه المدرسة هو نقل الروايات بأسانيدها، وهنا نتحدث عن القرن الثاني الهجري، مقتصرين على التفاسير المستقلة، وهي مدرسة التفسير بالمأثور.

ومن أصحاب هذه المدرسة التي كانت اللبنة في التفسير بالمأثور: تفسير يزيد بن هارون السلمي، وتفسير مقاتل بن سليمان، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، فقصد هؤلاء النقل دون جمع القراءات والإسهاب في الإعراب، والتفريق بين الأحكام الفقهية، وما إلى ذلك مما لم يكن هو الهم الأكبر لأصحاب هذه المدرسة، فعلى سبيل المثال: تفسير مقاتل للقرآن، فقد كان مهتماً بنقل الروايات، وهو أول من فسر القرآن كاملاً، وقال عنه الشافعي: (من أراد أن يتبحر في تفسير القرآن فهو عيال على مقاتل بن سليمان[42])، وغيرهم ممن أثنى على هذا التفسير، وكذلك قد اعتنى في أسباب النزول لما لها ارتباط وثيق بفهم وقائع الآيات، وكان تفسيره يتميز بالبساطة والسهولة، وكان يختار أفضل الآراء ويؤلها، وقد أحاط بفهم كليات القرآن، لكنه أورد الإسرائيليات فيه مما أضعف قوته، كما قال ابن المبارك: (يا له من علم لو كان له اسناد[43]).

وابتدأ عبد الرزاق تفسيره الذي تلقاه من شيخه معمر بن راشد قائلاً: ما جاء فيمن قال في القرآن برأيه، وذكر بعض ما يسنِد كلامه قائلاً: نا الثَّوْرِيُّ، عَنْ شَيْخٍ لَهُمْ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَئِنْ أَكْذِبُ مِائَةَ كَذِبَةً عَلَى مُحَمَّدٍ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَكْذِبَ فِي الْقُرْآنِ كَذِبَةً، إِنَّمَا يُفْضِي الْكَاذِبُ فِي الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ[44].

فقد اعتنى بأسباب النزول فكان ذلك جلياً في تفسيره، واعتنى كذلك بالناسخ والمنسوخ في الآيات المحددة التي نزل الحكم في نسخها، واهتم ببيان وجوه القراءات، وأورد بعض الإسرائيليات المردودة مثل إيراده قصة استيلاء الشيطان على ملك سليمان وهذا مخالف للعقل والنقل، وأيضاً: ما رواه من افتتان داود بزوجة قائده أروبا، ونبأ الخصم إذ تسوروا المحراب، وفيها ما لا يليق بمقام الأنبياء، وقد كان يقدم الحكم الفقهي في كثير من آيات الأحكام على معانيها الإجمالية، فكان يجمع التفسير بين معنى بعض الجمل القرآنية، وبيان بعض الألفاظ الغريبة والتأويل لبعض الآيات، وله حظ في تفسيره من فواتح السور والمثل[45]، وقد استفاد من تفسير عبد الرزاق علماء التفسير بالمأثور، منهم ابنُ جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مرديه والسيوطي[46].

ومن أصحاب مدرسة المأثور كذلك مما لا يسعى ذكر ما تميزوا به في منهجهم بالتفسير الأثري النظري من الذين جاؤوا بعد الطبري: الواحدي وتفسيره (الوسيط)، والبغوي وتفسيره (معالم التنزيل)، وابن عطية لأندلسي وتفسيره (المحرر الوجيز)، ابن الجوزي وتفسيره (زاد المسير في علم التفسير)، وابن كثير وتفسيره (تفسير القرآن العظيم)، والشوكاني وتفسيره (فتح القدير)، والسيوطي وتفسيره (الدر المنثور)، على تفاوت كبير بين كل تفسير وآخر لكن احتفظوا بصبغة التفسير الأثري.

فهذه مدرسة التفسير بالمأثور التي اعتنت بنقل الروايات، فهي مدرسة ذوي الألباب، التي تميزت بالنقل عن خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من أصحابه والتابعين.

---

[42]- المزي، **تهذيب الكمال** (28 / 436)

[43]- المصدر السابق (28/ 437)

[44]- **تفسير عبد الرزاق** (1/ 253)

[45]- **تفسير عبد الرزاق الصنعاني**، تحقيق ودراسة د. محمود محمد عبده –كلية الأزهر (1 / 159 – 173).

[46]- **تعريف الدارسين بمناهج المفسرين** (ص 278)

ثانياً: مدرسة التفسير البيانية

بعد مدرسة التفسير بالمأثور، بدأت الدائرة تتسع في فهم القرآن كلاً بحسب ما تميز به في فنه خدمة لكتاب الله العظيم، فالمدرسة البيانية نسبة إلى البيان: والبَيانُ: مَا بُيِّنَ بِهِ الشيءُ مِنَ الدَّلَالَةِ وغيرِها. وبانَ الشيءُ بَياناً: اتَّضَح، فَهُوَ بَيِّنٌ، وأَبَنْتُه أَنا أَي أَوْضَحْتُه. واستَبانَ الشيءُ: ظهَر. واستَبَنْتُه أَنا: عرَفْتُه. وتَبَيَّنَ الشيءُ: ظَهَر، وتَبَيَّنْتهُ أَنا، تتعدَّى هَذِهِ الثلاثةُ وَلَا تَتَعَدَّى. وَقَالُوا: بانَ الشيءُ واسْتَبانَ وتَبيَّن وأَبانَ وبَيَّنَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: آياتٍ مُبَيِّناتٍ[47].

توجه هذه المدرسة التوسع في دلالات الألفاظ القرآنية، في الغريب والمعرب والمترادف، وفي الفصل والوصل، وفي الإيجاز والإطناب، وفي الاستعارة والتشبيه، في الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية، والتعريض، وغيرها من ناحية البيان والإيضاح، وأستاذ هذه المدرسة الأول: هو الزمخشري[48]، الذي قال في تفسير قوله تعالى: "الرحمن، علم القرآن، علمه البيان." (الرحمن:1-3) عن البيان أنه: المنطق الصحيح المعرب عما في الضمير[49]، وهو من أئمة المعتزلة، ولكن أهل السنة أخذوا بزمام هذه المدرسة، ومنهما: أبي بكر الباقلاني صاحب كتاب (تأويل مشكل القرآن)، وعبد القادر الجرجاني صاحب كتاب (دلائل الإعجاز في علم المعاني)، ففي كتابهما ما يغني للأخذ بهما بعد تفسير الكشاف الذي كان الدعامة الأولى في هذه المدرسة، ولا سيما أن تأثير الزمخشري كان كبيراً على من أتى بعده، واقتفى أثره في نيل ما أورد في كتابه، ومنهم: أصحاب التفاسير: (البيضاوي، والنسفي، وأبو السعود)، وإن كانت عقيدتهم مخالفة لعقيدة الزمخشري، لكن صفحات تفاسيرهم شهدت اللمسات البيانية والبلاغية من المورد الأصل، ألا وهو الكشاف.

ثالثاً – مدرسة التفسير العقدية:

أستاذ هذه المدرسة صاحب التفسير الكبير " مفاتح الغيب"، الإمام في التفسير الملقب بفخر الدين الرازي، أشعري العقيدة وينتصر لمذهب أهل السنة والجماعة ويرد على المعتزلة والمرجئة والخوارج في تفسيره، وكان يظهر في كتابه هذا التصوف، فإن تفسيره الكبير ليس مقتصراً فقط على تفسير آيات الكتاب العزيز، بل حمل (مفاتح الغيب) على المذهب الشافعي في الغالب، ويكاد يخلو تفسيره من الإسرائيليات، وإن ذكرها فيذكرها لإبطالها ورفضها، وكان لا يرى قراءة القرآن في الصلاة بالوجوه الشاذة[50]، وعموماً كان منهجه أنه يذكر قضية علمية وتارة ما يذكر قضية عقدية وتارة ما يذكر القضايا الجدلية بين الفرق والمذاهب، ولا يمل القارئ من هذا التفسير المليء حتى من الجانب اللغوي وقضايا الأحكام، والأصول، وعلم الكلام والكون والطبيعة، مما جعل تفسيره موسوعة كبيرة متعددة النفع، لكن نضع هنا أهم ما نود التركيز عليه وهو الجانب العقدي.

والتفسير العقدي الذي نعنيه هنا: هو تناول المسائل العقيدة والرد عليها، وآراء الفرق من خلال الآيات القرآنية، ونضرب لذلك مثلاً في تفسيره الكبير: رد الرازي على المعتزلة في قوله تعالى: " لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "(الأنعام: 103). فذكر في هذه بيان هذه الآية عدّة مسائل مهمة، مبيناً أولاً وقائلاً: هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى تَجُوزُ رُؤْيَتُهُ، فتَقْرِيرُهُ: أَنَّهُ تَعَالَى تَمَدَّحَ

---

[47]- **لسان العرب** (67/13).

[48]- هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي، ولدَ في قرية زَمخشَر عام 1074 م الموافق لرجب 467 هـ، من أئمة المعتزلة، لديه كتابان مهمان في الجانب البيان: 1- أساس البلاغة، 2- كتابه الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.

[49]- **الكشاف** (4 / 443)

[50]- قال في مقدمة كتابه: اتفقوا على أنه لا يجوز في الصلاة، قراءة القرآن بالوجوه الشاذة. (63/1). وقال اتفق الأكثرون: على أن القراءات المشهورة، منقولةٌ بالنقل المتواتر.

بِقَوْلِهِ: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَذَلِكَ مِمَّا يُسَاعِدُ الْخَصْمَ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ بَنَوُا اسْتِدْلَالَهُمْ فِي إِثْبَاتِ مَذْهَبِهِمْ فِي نَفْيِ الرُّؤْيَةِ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَنَقُولُ: لَوْ لَمْ يَكُنْ تَعَالَى جَائِزَ الرُّؤْيَةِ لَمَا حَصَلَ التَّمَدُّحُ بِقَوْلِهِ: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَعْدُومَ لَا تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ، وقَالَ: إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَصَارَتْ هَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةً عَلَى أَنَّهُ جَائِزُ الرُّؤْيَةِ وَعَلَى أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ أَرَدْنَا أَنْ نَزِيدَ هَذَا الِاسْتِدْلَالَ اخْتِصَارًا قُلْنَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ الْمُرَادُ مِنْهُ إِمَّا نَفْسُ الْبَصَرِ أَوِ الْمُبْصِرِ، وَعَلَى/ التَّقْدِيرَيْنِ: فَيَلْزَمُ كَوْنُهُ تَعَالَى مُبْصِرًا لِأَبْصَارِ نَفْسِهِ، وَكَوْنُهُ مُبْصِرًا لِذَاتِ نَفْسِهِ. وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ أَنْ يَرَاهُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَرُورَةَ أَنَّهُ لَا قَائِلَ بِالْفَرْقِ.

ثم شرع في الرد على المعتزلة في قولهم في ستة مسائل مفصلة وختم قوله في المسألة، "وَبِهَذَا التَّقْرِيرِ فَإِنَّ الْكَلَامَ يَنْقَلِبُ عَلَيْهِمْ حُجَّةً فَسَقَطَ اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ[51]".

فإن من ينظر في هذا التفسير يرى أنه أكبر من تفسير، لكثرة استطراد صاحبه فيه، مع العلم النافع الذي خلفه من بعده، فإنه يؤخذ منه الراجح من الأقوال ويترك ما أورد فيه من التصوف، وبعد تفسيره اختصره العلماء كما فعل النيسابوري[52] في اهتمامه بالمسائل العقدية في تفسيره: "إيجاز البيان عن معاني القرآن".

رابعاً – مدرسة التفسير الفقهية:

بعد اهتمام علماء التفسير في اللغة والمأثور والعقيدة، نستطيع أن نقول هناك من علماء التفسير من كان جل تفسيره ذكراً في آيات الأحكام، وتعدد المذاهب، كمثل تفسير الشافعي (أحكام القرآن)، (وأحكام القرآن) للجصاص الحنفي، (وأحكام القرآن) للكيا الهراسي الشافعي، (وأحكام القرآن) لأبي بكر بن العربي المالكي، (القول الوجيز في أحكام الكتاب العزيز) لشهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبي، و(أحكام الكتاب المبين) عليّ بن عبد الله محمود الشنفكى، و(الجامع لأحكام القرآن) الموسوعة في التفسير الفقهي للإمام القرطبي، الذي وضحت فيه الصورة بشكل أظهر ممن سبقه في التفسير المتسم بالصبغة الفقهية.

ونأخذ تفسير القرطبي أنموذجاً في هذه المدرسة: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن فرح الأنصاري الخزرجي، الأندلسي القُرطبي الإمام[53]، صاحب تفسير (الجامع لأحكام القرآن)، وأما من ناحية عقيدته: فهو مؤول أشعري العقيدة، يعتمد في نقله من الأئمة الأشاعرة في باب الأسماء والصفات، لكنه رد كثيراً من أقوال المبتدعة والرافضة وقد أثبت رؤية الله تعالى في الأخرة[54].

وفي كتابه الجامع: كان يكثر من آيات الأحكام، ولا يتنصر لمذهبه المالكي، بل يتبع الدليل حيث كان، وقد ذكره الإمام الذهبي كتابه من ضمن " تفاسير الفقهاء" في كتابه " التفسير والمفسرون[55]".

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: "هو من أجَلِّ التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ[56]".

---

[51]– بتصرف، تفسير (**مفاتح الغيب**) للإمام فخر الدين الرازي، انظر (13/ 97 -104).

[52]– محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين (المتوفى: نحو 550هـ)، من علماء القرن السادس الهجري، صاحب التفسير: "**إيجاز البيان عن معاني القرآن**".

[53]– ترجمته: في **الديباج المذهب لابن فرحون**، وفي **طبقات المفسرين** للسيوطي (88)، و**معجم المفسرين** لعادل نويهض (479/2).

[54]– بتصرف **القول المختصر المبين في منهاج المفسرين**، د. محمد الحمود النجدي (ص50).

[55]– الإمام الذهبي، **التفسير والمفسرون** (2/ 322).

[56]– انظر إلى المرجع السابق (2 / 337).

فكان الإمام القرطبي ينقل أقوال السلف، فنقل عن ابن جرير الطبري، وابن عطية، وابن العربي، وأبو بكر الجصاص، ممن سبقه في كتابه التفسير، وتميز القرطبي بعد اكتفائه بنقل آيات الأحكام فقط، بل ذكر كل ما يتعلق بالتفسير، مع إقصائه للقصص والإسرائيليات وذكره لمسائل أقل من إصبع اليد في الإسرائيليات، ويعتبر تفسير القرطبي هو الفريد من نوعه، من ناحية التفسير الفقهي، المعني بتفسير آيات الأحكام.

خامساً – مدرسة التفسير المتصوفة:

بادئ ذي بدء للمدرسة المتصوفة، إطار لا يشمل مدارس التفسير السابقة، فإن نظرة التفسير في هذه المدرسة هي: أن للآيات القرآنية معاني خفية لا تدرك معانيها من خلال اللغة، وإنما من خلال الإلهام النفسي والحسي، فهو يعتمد على المعنى التأويلي الظاهر بين نصوص القرآن، ومن هنا تكمن نقطة الحذر في قراءة كتب هذه المدرسة، وبيانًا لذلك يقول التستري: "ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان، ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم والحد حلالها وحرامها والمطلع إشراف القلب على المراد بها فقها من الله عز وجل، فالعلم الظاهر علم عام، والفهم لباطنه والمراد به خاص[57]".

ونورد تفاسير هذه المدرسة، إيضاحًا للمعاني التي أخبرنا بها، وممن كان له التأليف في هذه المدرسة:

تفسير التستري: (تفسير القرآن العظيم)، لأبي محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري، فكان اتجاهه إلى التصوف من صغره، متأثرًا به في حياته، مما برز أثر ذلك حتى في تفسيره، ويظهر لنا أن سهلاً لم يؤلف هذا التفسير، وإنما هي أقوال قالها سهل في آيات متفرقة من القرآن الكريم، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدي، ثم حقق ورتب، وكان تفسيرًا لا يشمل جميع آيات القرآن، وكان على منهج أهل التصوف، وكان يذكر المعنى الظاهر للآيات، ويورد التفسير الإشاري لبعضها، ويعتبر كتابه من كتب التفسير الإشاري[58]، ويعقب تفسيره لأحاديث مشتهرة بين الناس من غير مراعاة صحة الأحاديث من ضعفها، ومع سهولة قراءة كتابه، وغزارة فهمه، " وقد سلك في مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر وإليك نموذجا منه إذ يقول في تفسير البسملة ما نصه:

الباء بهاء الله عز وجل والسين سناء الله عز وجل والميم مجد الله عز وجل والله هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها وبين الألف واللام منه حرف مكنى غيب إلى غيب وسر من سر إلى سر وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان"[59]، مع ضرورة إيضاح أنه كان يفسر بما هو قريب من المعنى الظاهر للآيات.

لطائف الإشارات: للقشيري[60]، أشعري شافعي المذهب، ويعد تفسيره من تفاسير الصوفية الإشارية، فقد أتم تفسير القرآن آية بآية، وكان كثير الإيراد في الجانب اللغوي، ذاكرًا للأبيات الشعرية، وقليل الإيراد في الجانب الحديثي بمعنى سنة النبي صلى الله عليه وسلم تخصيصًا، وإن أورد الأحاديث فيذكرها من غير سند، وقد استفاد من تفسير عبد الرحمن السلمي، حقائق التفسير ويعتبر أيضًا من التفاسير الصوفية.

---

[57]– سهل بن عبد الله، **تفسير القرآن العظيم** مطبعة السعادة، سنة 1908م ص61.

[58]– ونعني **بالتفسير الإشاري**: هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر والمراد أيضا، وقد اختلف العلماء في التفسير المذكور فمنهم من أجازه ومنهم من منعه، بشروط. انظر إلى (**مناهل العرفان** 2/ 86).

[59]– المرجع السابق.

[60] –هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري، ولقبه زين الإسلام، وشهرته القشيري، وهو عربي النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن، توفي 465 هـ (**لطائف الإشارات للقشيري**، بتحقيق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة ج1، ص 8).

تفسير القرآن المنسوب لابن عربي، ولكنه في الحقيقة للقشاني السمرقندي، ويعتبر من أهم التفاسير الإشارية بعد تفسير القشيري، ولابن عربي نظرة في معنى التأويل فهو يقبل التفسير بالمعنى الظاهر، ويرى أيضًا أن هناك سعة في التأويل، وكان متأثرًا بنظرية وحدة الوجود، التي بنى عليها تصوفه،

ويفهم بعض الآيات القرآنية فهماً منتزعاً من المشاهد المحسوس، لدرجة أنه يخضع إلى التفسير الصوفي من خلال القواعد النحوية أو البلاغية، فإن القياس في الذي كان يقيسه ابن عربي قياسًا للشاهد على الغائب، مما يدخل في ذلك عدم جواز تفسير الشيء الذي لا يتوصل به إلى حقيقته إلا عن طريق السمع عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وعلى ذلك فإنه يقال في هذه التفاسير في هذه المدرسة، إضافة لمن أتى بعدهم بحذو ما حذو به، أن يكون طالب العلم بالتفسير على بصيرة مما يقرأ، فكون هذه المدرسة قد تكون خدمت تفسير آيات كتاب الله عز وجل، لا يعني أن تُهمل الأخطاء التي تقدح في العقيدة السليمة الصحيحة، من غير إمعان وتمحيص لأسس راسخة في النفوس الزكية.

سادساً: مدرسة التفسير الوعظية

أستاذ هذه المدرسة: الخازن[61]، صاحب تفسير: (لباب التأويل في معاني التنزيل)، ويأتي معه في ضمن هذه المدرسة: الخطيب الشربيني، صاحب تفسير: (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير). فصاحب لباب التأويل في معاني التأويل لم يجتهد كثيرًا في التفسير إنما كان يجمع وينقح تفسيره باختيار منه، كما قال مؤلفه في بداية كتابه: " لم أجعل لنفسي تصرفا سوى النقل والانتخاب.." فتفسيره مجموع من عشرٍ متخلفين، كل بما دعت الحاجة أخذه الخازن، لكنه هامشًا لتفسير الإمام البغوي، وقدم لكتابه بفصول ثلاث. وهو مؤول لعدد كثير من الصفات، وكان يقف بجانب السلف تارة، وتارة أخرى لا يرجح! وفي تفسيره ردود على المعتزلة والخوارج والمرجئة، إبطالًا لشبهاتهم، ويعتني بالناحية الفقهية، ويذكر التفسير بالروايات، والأهم في ذلك كان كثير التعرض للمواعظ والرقاق.

وللخطيب الشربيني[62] الفقيه الشافعي المفسر لكتاب الله، نفس المنهج الذي كان ينهجه الخازن، فكان تفسيره مليء بالمواعظ والرقاق، والترغيب والترهيب، لكنه لم يأتي بالتفسير الإشاري، فكان يذكر أرجح الأقوال، ويأتي بالمسائل الفقهية بحسب ما يقتضيه فهم السياق، وكان مهتماً بإيراد القراءات، وذكر المناسبات للآيات، فكان تفسيره قيماً مقتصراً على المفيد من العلوم التي تخدم فهم كتاب الله بما فيها الدلالات اللغوية في فهم مراد الآيات، ونضرب مثالاً من تفسيره على حرصه على جانب الترغيب والترهيب: " العقاب المعدّ للمكذبين بالساعة أتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة بقوله تعالى: {قل} أي: لهؤلاء البعداء البغضاء {أذلك} أي: المذكور من الوعيد وصفة النار {خير أم جنة الخلد} أي: الإقامة الدائمة {التي وعد المتقون} أي: وعدها الله تعالى لهم، فالراجع إلى الموصوف وهو هاء وعدها محذوف، فإن قيل: كيف يقال: العذاب خير أم جنة الخلد، وهل يجوز أن يقول القائل: السكر أحلى أم الصبر؟ أجيب: بأنه يحسن في معرض التقريع كما إذا أعطى السيد عبده مالاً فتمرد وأبى واستكبر، فضربه ويقول له: هذا خير أم ذلك؟ قال أبو مسلم: جنة الخلد هي التي لا ينقطع نعيمها، والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور"[63].

---

[61]– أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي. وعُرف بالخازن لأنه كان أمينًا لمكتبة في دمشق. أصله من حلب. وُلد في بغداد، وتوفي بحلب.

[62]– هو شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي القاهري الفقيه المفسر المتكلم، النحوي، ولد في شربين بمحافظة الدقهلية وإليها ينسب ثم انتقل إلى القاهرة واستوطنها حتى توفي.

[63]– **تفسير السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير** (652/2).

فإن الخازن والخطيب، أجادى في الموعظة من خلال إبرازهم لجانب الترغيب والترهيب والرقاق في مواضع الآيات، فلربما من قرأ سياق آيات كتاب الله الحكيم ثم أتبع في قراءة تفسيره من خلال كتابهما أو من أتى بعدهما على نفس نهجيهما، تتعظ نفسه وتزجر، ومن أحسن ممن سار على منهج وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

والخلاصة فيما سبق بيانه: بعد قولنا هذا في المدارس التي جاءت بعد مدرسة الطبري في التفسير، نقول: إن التصنيف للمدارس الذي ذكرنا، لم يكن للون واحد بل تفرد به كل من أوردنا اسمه من تحت هذه المدارس، وإنما هو كترتيب أتى ضمن الخط الزمني الذي سلكه علماء التفسير، فلا إنصاف إن قلنا مثالاً أن تفسير الرازي كان له صبغته في التفسير العقدي وليس له من كل فن اهتمام في خدمة تفسير كتاب الله، كيف؟ وهو الذي وُصِفَ تفسيره بالموسوعة التفسيرية!

وليعلم القارئ أننا وإن أنهينا نظرتنا الشاملة لقرون مضت في هذه الرحلة هنا، فإننا نقول لم نشمل ولن نعطي حق العلماء في هذا القرون التي خلفت ورائها الميراث التفسيري، بذكر كل تفسيرٍ لكل عالمٍ، ولكن يجمل بنا أن نخبر بالتفسير الذي ختم المراحل كلها، بنظرته لكل الجوانب في تفسيره، وهو (روح المعاني) للإمام المفسر الألوسي، فجمع كل شيء فكان ختام الكتب في هذه المرحلة، وكانت قد انتهت المرحلة الثانية بنهاية القرن الثاني عشر الهجري، فقد أبدع كلٌ فيما دون، وأغنى بما كان أخذ، وأسهب فيما يستحق الإسهاب، من وصف وتبيان لكتاب لا تنقضي عجائبه!

فهذا العلم الذي قيض الله عزو جل له من كل خلف عدول، يعملون به ويعلمونه، ويحمونه، ويردون الشبهة بالدليل، والباطل بالحق بإذنه، فلا تقف الأيدي في كتابه تفسيره وفق ما أراد الله له، فلكل مرحلة أئمة، وخلف نور هذه المرحلة التي مضت، تأتي مرحلة التفسير في العصر الحديث، لنخبر بنورها مستوضحين تفاسيرها ورجالها.

المطلب السادس – التفسير في العصر الحديث:

أولاً – تفسير محمد عبده:

إن بداية اتجاه التفسير في العصر الحديث، كان في زمن الشيخ محمد عبده بن حسن بن خير الله رحمهم الله تعالى، وبالتحديد في بداية القرن التاسع عشر الهجري، فإن لهذا العصر أثره البالغ في الصعوبة على المسلمين، من نشر للثقافات الأوروبية، ومن حيث ظهور التقدم في العلم في دولهم، مما انتشرت به الأفكار الإلحادية والابتعاد عن الدين الذي ارتضاه لعباده، فظهر الفلاسفة والمنكرون، وانتشرت: الماركسية والوجودية والداروينية والرأسمالية وغيرها، ثم استعمرت بعض الدول بعضها منها فرنسا وأمريكا وروسيا، فنشروا أفكارهم وقيمهم.

وبينما شهد هذا العصر بالتقدم وظهور المادية الجاهلية، تأخر المسلمون وابتعدوا عن دينهم، واستعمرت بلاد المسلمين كلها، ومن ذلك توجه اليهود لإقامة دولة يهودية لهم على أرض المقدس في فلسطين، وتمكنوا من احتلالها، ونشأت بعدها أجيال متأثرة بالمذاهب الغربية، فما كانوا سوى مقلدين لا متبعين على دليل وبرهان.

وبعدها جمع المسلمون قواهم ليتداركوا ما أسقط، ولتعود الأمة على ما جبلت عليه من فطرتها التي فطرها الله عليها، تنتهي هذه المرحلة بنهاية القرن العشرين، ويظهر لنا اتجاه العصر الحديث في مدارس فكرية إسلامية، من تفسير القرآن في إصلاح المجتمع: وهما متمثلتان بمدرسة الشيخ محمد عبده سنورده هنا ونذكر تلميذه محمد رشيد رضا وممن ينتمي إلى مدرسته جمال الدين القاسمي، ومدرسة سيد قطب في نهاية ذكرنا للتفسير في العصر الحديث.

والشيخ محمد عبده: وهو أستاذ التفسير في العصر الحديث، وكان قد تأثر كثيراً بشيخه درويش خضر حتى كان أقرب المقربين إليه، مما جعله يقول عنه: أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، فكانت له شخصيته بطابع اتسم فيه مما جعله يكتب ويؤلف الكتب، ويتكلم في أمور الضعفاء ومساعدة المحتاجين، وحرصه على إصلاح المجتمع والأمة، حتى أنه قدم خطة إصلاحية لجامعة الأزهر لتطبيق ما يراه هو صحيحاً، فكان يرى بأفكار ليست من الدين بشيء بمثل تقارب الأديان وغيرها! والحديث في جانب ذلك يطول، واقترح عليه تلميذه محمد رشيد رضا أن يفسر القرآن، ففسر ببعض الآيات كما يقول إنه ليس بحاجة لتفسير جميع آيات القرآن، فقد وفّى من سبقه من التفسير الكثير، وكانت له نظرته الخاصة بأن من سبقه في التفسير لم يفي بالمقصود، وهو ينطلق من خلال منهجه في تفسيره: "أن إصلاح المسلمين إنما يكون نتيجة فهمهم للقرآن".

والإمام الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون، أطلق على اتجاهات التفسير في العصر الحديث عدة مسميات، فسمى المدرسة التي أطلق منها الشيخ محمد عبده اللَّون الأدبي الاجتماعي للتفسير في عصرنا الحاضر، ووصفه بالتميز بعد مرحلة الركود في التفسير، وإن منهج الشيخ محمد عبده في تفسيره دلالات على ما كان يطمح أن يلقى أثره في مجتمعه، فلنبين أهدافه لنعرف ما سلك نهجه في تفسيره، فقد "نقى تفسير القرآن من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعة والاستطرادات النحوية ونكت المعاني ومصطلحات البيان وجدل المتكلمين وتخريجات الأصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق وكثرة الروايات والعلوم الرياضية والطبيعية"[64]، وإن تأثر الشيخ بالمذاهب بتفاوت بمراتبها كان بين البيان وبين الخفاء لكل منها، فكان متأثراً بالصوفية وبالإمام الغزالي ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: " ونحن أقرب إليه منكم" أي إذا بلغت روحه الحلقوم، إنه القرب بالعلم[65]، وبالمعتزلة وأبو مسلم خاصة وهو مفسر معتزلي وتأثر بتفسيره وبالعقلية التي اتصفت بها مدرسة المعتزلة، وتأثر بالسلفية وبابن تيمة وبعقيدة السلف في آيات الصفات وعدم التعصب المذهبي، ولم يخلو تأثيره من الذاهب فقط وإنما وبالحضارة الأوروبية فقد تأثر في نظرية داروين والتطور حتى أؤول بعض الآيات كتأويله لحادثة الفيل في تفسيره لجزء عم، فتأثره بالفلسفات المادية كان واضحًا، و لون تفسيره كان مليئاً بالتأويل الذي لا حق فيه!

ولم يكتب تفسيره إنما كان يلقيه في درس ويكتب بعده تلميذه محمد رشيد رضا، وكان قد انتهى إلى تفسير قوله تعالى: " وكان الله بكل شيء محيطاً " (125: النساء)، وكان يقرأ في تفاسير كثيرة ثم يقول فيما يراه الأرجح، فكان يرى أن السورة وحدة كاملة لا تتجزأ، وكان حريصاً على التنبيه على خطر الإسرائيليات، وتوضيح مبهم الآيات، وتفنيده للشبهات المشتهرة في التفسير ومنها قصة الغرانيق، وكانت رؤيته أن القرآن كتاب هداية لعامة البشرية، فوضح الهدايات وأجاد في تبيينها.

وإن لكل أستاذ تلاميذه، فإن الشيخ محمد عبده أثر كثيراً فيهم، ولقد أسموه (بالأستاذ الإمام) فقد أوضح لهم الطريق، وأرشدهم إلى عدم التعصب، وأسبغ عليهم المعاني التي تُحمل في نفوسهم، بأن هناك نظرة للقرآن بعيدة عن المذاهب، وبها تصلح المجتمعات إن فهم المسلمون حقائق الكتاب وعاشوا بمعانيه، وكان كما وصفوه أنه قاد الاتجاه التوفيقي مع الحضارة الغربية، ومثل له بتفسير رشيد رضا.

ثانياً – تفسير جمال الدين القاسمي:

هو محمد جمال الدين أبو الفرج بن محمد بن سعيد، أبي بكر المعروف بالقاسمي، نشأ في دمشق، وحفظ القرآن، وتعلم لمدة 14 عاماً، وكان كما وصف محمد رشيد رضا أنه كان من أكمل ما رأى من آدب وخلق وشمائل، حتى صار من كبار علماء دمشق، وهو صاحب تفسير "محاسن التأويل" الذي بدأ في كتابته وهو في الثالث والثلاثين من عمره وأتمه قبل وفاته بثلاث سنوات، وهو تفسير يقع

---

[64]- تاريخ الأستاذ الإمام (778/1).

[65] -**تفسير المنار** (168/2).

في سبعة عشر جزءاً، فقد قدم له بمهمات لعلوم القرآن وأصول التفسير وقواعده، ثم شرع في تفسير كتاب الله عزوجل، فكان مهتماً بالقضايا اللغوية، والنحوية، وكذلك البلاغية، ويظهر اهتمامه بالمسائل العلمية، وكان يستطرد كثيراً، ويورد الإسرائيليات، فهو ينتصر لمذهبه الحنبلي في بعض الأحيان ويعرض عن غيره في بعض الأحيان ولو كان رأياً للجمهور، وكان ينقل عن كل أحد لا يضره من نقل عنه، وقد تأثر بشيخه لدرجة نقله فصولاً من رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده في تفسيره، وكان يظهر سلفيته في العقيدة، وكان يؤخذ عليه سكوته ونقله لبعض الآراء المتناقضة دون تبيّنها أو تفنيدها، وفي حياته يدعو إلى التجديد في فهم الدين، وكان لدعوته الإصلاحية أثرها في تفسيره، وهو ذات الاتجاه السلفي في العصر الحديث، فقد تأثر بابن تيمية رحمه الله، وكان ينقل أقواله وذلك في قوله تعالى: " يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون" (الاسراء:75).

ناقلاً لابن تيمية شرحه لمعاني ألفاظ التوسل والوسيلة، المراد بها في الكتاب والسنة، وكان ينقل عنه في مواضع أخرى، وينقل عن العز بن عبد السلام، والسيوطي وابن خلدون، وقد أولى القاسمي في تفسيره جانب اهتمامه الواضح في المسائل العلمية، ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: " فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ[66] " (الأنعام: 76).

فمن يقرأ كتابه يجد فيه كلاماً لكل علمٍ من اللغة والفلك والأديان، فكان يقف على هذه المعاني وقفات، وكان بعد تفسيره لبعض الآيات يقف لينبه عن رأي العلماء في الآيات: كالرازي وغيره، وكان يخطئ الحافظ ابن كثير في مسألة انشقاق القمر، ويحتج بأحاديث لا صحة لها في مواضع أخرى، ومما يؤخذ عليه أيضاً نقله ما نسب للجلال الدواني، ويورد كلام شيخه العطار في قضية إيمان فرعون، فنقل كلام شيخه في المسألة في تفسير سورة يونس، ولم يعلق على ما نقله، ولم يوضح ما أشار إليه، فلكل جواد كبوة، ولا تُهمل محامده التي أوردها، ولا يخفى على من عرف أنه من تلاميذ مدرسة الشيخ محمد عبده، فقد تأثر هو وصاحبه محمد رشيد رضا في أستاذهم، ونعقب بذكرنا للقاسمي، ذكرنا لصاحبه فيما سيأتي.

ثالثاً – محمد رشيد رضا[67]:

صاحب تفسير المنار، والذي كان قد أسس من قبل " مجلة المنار" التي كانت على خطى " العروة الوثقى" لشيخه محمد عبده، وإن للشيخ محسين الجسر فضلاً على تلميذه محمم في تلقيه للعلوم الشرعية، كذلك شيخه في الفقه والحديث محمود نشابة، وغيرهم من الذين توسموا في رشيد ذكائه وفطنته، مما جعل شخصيته تكون ذات إلمام بالمسائل المتعددة، وكان مذهبه الصوفية متأثراً بالإمام الغزالي، ولكنه مع ذلك تأثر بكتب السنة، وعلماء السنة كابن تيمية وابن القيم.

ومما ألف من كتب، كتاب " تفسير القرآن الحكيم" المشتهر بتفسير المنار، فقد وصل في تفسيره إلى قوله تعالى: " رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ " (يوسف:101)، وقد كانت رؤيته مركزة على النزعة الإصلاحية المجتمعية، وفق ما تتلمذ عليه من شيخه، أن صلاح هذه الأمة لا يستقيم عوده إلا بفهم القرآن، على ما يناسب العصر الحديث، لكنه توسع في تفسيره للآيات بعد وفاة أستاذه، وكان غرضه في هذا التفسير هو توضيحه لما تعلمه من الأستاذ الإمام على حد وصفه.

---

[66]- القاسمي، **محاسن التأويل** (4 / 402).

[67]- محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني البغدادي الأصل والحسيني النسب، من الكتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، ولد ونشأ في القلمون (من أعمال طرابلس الشام)، ثم رحل إلى مصر سنة 1315 هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وكان قد اتصل به قبل ذلك في بيروت، وتوفي في مصر. (**الأعلام لخير الدين الزركلي**، 126/6).

فإن طريقة كتابة صاحب المنار لكتابه، لا تختلف عمن سبقه، في بيان نوع السورة، وسبب نزولها وربطها بما سبقها من الآيات وكذلك مع ما ختمت به السور وابتدأت، لكنه يتميز بسهولة عباراته، واختصاصه بالجانب الأدبي، وبيانه اللغوي، ومما يحمل ذكره في تفسيره إنه كان يدافع عن الإسلام، ويبين حكمة الخالق سبحانه فيما خلق في سياق تفسيره للآيات، ومما يؤخذ عليه كثرة الاستطرادات والتفريعات، وكان له دور أثر سلباً على المسلمين، بكثرة إيراده للإسرائيليات لتبين خطورتها لكنه أتى بما لا يُحمد عقباه، فقد خلط الأمور، وألبس الحق بالباطل، فطعن في الأحاديث الصحاح كحديث: (لا وصية لوارث)، وشكك في عدالة الصحابة – رضوان الله عليهم – وألبس التهم بلباس لا يليق، فوصف الصحابة — رضوان الله عليهم — واتهمهم باستقاء علمهم وحديثهم من أهل الكتاب، فقد كان مستقل الشخصية ولديه تفكيره الحر الذي لا يستند على دليل بل مجرد اتباع هوى وتعصب، وهذا ما حذر منه القرآن في سياقات متعددة، فلا يستوي من كان على بصيرة بإتباعه للحق، ومن اتبع هواه.

فتفسيره يشمل النقل والعقل، والفروع والأصول، واللغة والبيان وقد اهتم بهما وأخبر بأهمية ذلك قائلاً: "لَا يَتَّعِظُ الْإِنْسَانُ بِالْقُرْآنِ فَتَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ بِوَعْدِهِ، وَتَخْشَعَ لِوَعِيدِهِ، إِلَّا إِذَا عَرَفَ مَعَانِيَهُ، وَذَاقَ حَلَاوَةَ أَسَالِيبِهِ، وَلَا يَأْتِي هَذَا إِلَّا بِمُزَاوَلَةِ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْبَلِيغِ مَعَ النَّظَرِ فِي بَعْضِ النَّحْوِ[68].

ومن ذلك بيانه لمعنى الإدلاء في قوله تعالى: " وتدلوا بها إلى الحكام" (البقرة:188)[69]، فصاحب المنار وإن كان مهتماً باللغة، فإنه لم يدع تفسير آيات الأحكام، فخالف بذلك قول المذاهب كتفسيره مثلاً لقوله تعالى في آية التيمم: " فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ " (النساء:43) فيرى أن التيمم مباح للمسافر حتى وإن وجد الماء ولم يمنعه من الوصول إليه، ونقل بعدها كلام شيخه محمد عبده: "الْمَعْنَى أَنَّ حُكْمَ الْمَرِيضِ وَالْمُسَافِرِ إِذَا أَرَادَ الصَّلَاةَ كَحُكْمِ الْمُحْدِثِ حَدَثًا أَصْغَرَ، أَوْ مُلَامِسِ النِّسَاءِ وَلَمْ يَجِدِ الْمَاءَ فَعَلَى كُلِّ هَؤُلَاءِ التَّيَمُّمُ فَقَطْ" ، وهذا لا يقول به عاقل فضلاً عن عالم، فقد خالف المذاهب كلها، وغيرها من آيات تفسير الأحكام.

وبالصورة المجملة فإن تفسيره، حوى على هفوات كبيرة، وزلات واضحة لمن يقرأ، فإنه لا يقف على حد معين من تفسيره، فيتبع الهوى ويقول ما يقوله لتأييد أفكاره التي أراد أن يفصح بها، وكان يرد أحاديث الصحيحين لأنه لا تتفق مع ما يراه، وكفى بهذا مأخذاً، فكان شديد العنف مع من خالفه، وبالمقابل فقد حوى كتابه من الخير الذي لا يُنكر، فقد دافع عن الإسلام والقرآن، ورد على من أثار الشبهات حولهما بالحجج، وكذلك دحضه لشبهات الماديين والملحدين، فتفسيره كان موافقاً لشيخه حتى في بعض الخصائص، كونه يشترك معه في المنهجية التفسيرية، لكن مما حال بينه وبين الناس، من هذا التفسير أمور أوردناها، ولعل أهمها كثرة استطراداته ومغالته ورده لصحيح النقل والأثر.

رابعًا: تفسير ابن عاشور:

هو الأستاذ الشيخ محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن مَحمد ابن عاشور[70] وهو من أشراف الأندلس شيخ الإسلام المالكي التونسي، نشأ الشيخ محمد الطاهر في رحاب العلم والجاه، فسلك أول ما سلك تعلم القرآن الكريم في سن

---

[68]- **تفسير المنار** (152/1).

[69]- المصدر السابق (157/2).

[70] شيخ الإسلام الإمام الأكبر، محمد الطاهر بن عاشور، تأليف الشيخ: محمد الحبيب بن الخوجة 153/1. ابن عاشور (1296 – 1393 هـ = 1879 – 1973 م) رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس. مولده ووفاته ودراسته بها. عين (عام 1932) شيخا للإسلام مالكيا.

السادسة، فقرأه وحفظه ، وفي سن الرابعة عشرة من عمره التحق بجامع الزيتونة سبع سنوات ، درس فيها أهم العلوم والمعارف التي كونت عقليته العلمية [71] ، فقرأ علوم القرآن، والقراءات، والحديث، والفقه المالكي وأصوله والفرائض، والسيرة، والتاريخ، والنحو، واللغة، والأدب، والبلاغة، وعلم الكلام والمنطق.[72]

درس ابن عاشور على يد الشيخ محمد النخلي، فقرأ عليه الوسطى في العقيدة، وشرح المحلّي على جمع الجوامع في أصول الفقه، والمطوّل في البلاغة، والأشمونيّ في النحو، وكان من أبرز من أخذ عنهم من شيوخ جامع الزيتونة ، الشيخ أحمد بن بدر الكافي قواعد العربية ، الشيخ أحمد جمال الدين ، قرأ عليه (القَطْر) في النحو، و(الدردير) في الفقه المالكي، والشيخ سالم بو حاجب المعقولات والتاريخ والجغرافيا والرياضيات، انتصب للتدريس بالجامع الأعظم، وفي سنة (0 31 ا هـ) و ارتقى فيها، شارك في سنة (366 ا هـ) في لجنة إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، ثم قصد الآستانة بدمشق، التقى بالشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمد عبده، قام الشيخ بمهام كبيرة في طرابلس فكان مجاهداً واعظاً بعلمه [73].

عَلَم من أعلام العرب والمسلمين في العصر الحديث، كان لهم تأثير كبير في مسيرة العلم والتعليم والتأليف في إفريقية (تونس)، طيلة سبعين عاماً من القرن الرابع عشر الهجري / القرن العشرين الميلادي، اشتهر بتفسيره للقرآن العظيم المسمّى (التحرير والتنوير) [74]، وأبدع في الأصول بكتابه (مقاصد الشريعة الإسلامية)، وفي الأدب شرحه (ديوان بشار بن برد)، في إصلاح التعليم الإسلامي في كتابه (أليس الصبح بقريب) الذي صاغ فيه نظريته في منهج التعليم وسبل إصلاحه، وتصحيح مسار العلوم.

قام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بإقراء كتبٍ عاليةٍ في جامع الزيتونة، مثل (أسرار البلاغة) و (دلائل الإعجاز) للجرجاني، و (الشرح المطوّل) للتفتازاني، و (شرح جلال الدّين المحلّي لجمع الجوامع في الأصول)، و (مقدّمة ابن خلدون)، و (موطأ الإمام مالك بن أنس)، و (ديوان الحماسة)، كما أدخل بعض الإصلاحات على التعليم الزيتوني لم يسبقه بها أحد، تحمَل العلمَ عن ابن عاشور جمٌّ غفير من الجمهور التونسي والجزائري، منهم الأديب والفقيه والمؤرخ والصحافي والاقتصادي، وتخرج على يديه كبار الكتاب والوزراء، وكان مرجعاً لأساتذة الزيتونة وعلمائها إلى آخر أيام حياته[75]

إن المؤلفات والتحقيقات التي تميّز بها ابنُ عاشور تُفصح عن نُضوجٍ علمي ومعرفي، وعن فكرٍ نَيّر اتَصف بمعالجة علميّة رصينة، وأسلوبٍ بلاغي رفيع، والذي يعنينا من مؤلفاته، آثاره في علوم القرآن، تفسير التحرير والتنوير، هو أول تفسير كامل للقرآن الكريم في تونس، على مر التاريخ وسماه (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب الجديد)، ووجه اهتمامه في تفسيره هذا، ومنهجه فيه اعتنى بفن دقائق البلاغة الذي امتاز به عن غيره من المفسرين، فأوضح فيه بيان وجوه الإعجاز، ونكت البلاغة العربية،

وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات مطبوعة، من أشهرها (مقاصد الشريعة الإسلامية) و (أصول النظام الاجتماعي في الإسلام) و (التحرير والتنوير) في تفسير القرآن،، و (الوقف وآثاره في الإسلام) و (أصول الإنشاء والخطابة) و (موجز البلاغة) ومما عني بتحقيقه ونشره (ديوان بشار بن برد) أربعة أجزاء. وكتب كثيرا في لمجلات. نقلا عن: «**الأعلام**» للزركلي (6/ 173-175

[71] (**أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير** : 20-22)

[72] (**نهج ابن عاشور في الإحتجاج بالقراءات القرآنية** 368)

[73] انظر: **تراجم الأعلام للفاضل ابن عاشور**، ص 212

[74] (ابن عاشور ، الطاهر بن محمد ، ''**التحرير والتنوير** '' ، ط، (تونس : دار سحنون للنشر والتوزيع) 9/1

[75] (**تراجم المؤلفين التونسيين**: 3/ 2 5 1 - 53 1)

وأساليب الاستعمال، واهتمّ أيضاً ببيان تناسب اتصال الاي، بعضها ببعض، كما اهتم ببيان معاني المفردات في اللغة بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثيرٍ منه قواميسُ اللغة، وبذل الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير، وهو القائل (لم أغادر سورة إلا بيَّنت ما أحيط به من أغراضها ...) أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها إثر بعض فلا يراه حقاً على المفسّر(التحرير والتنوير :م1 ، ج1، 8) ، وأما مصادره، (تفسير الكشاف) للزمخشري، و (المحرّر الوجيز) لابن عطية، و (مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي، و (تفسير البيضاوي) . وأما عن مدة تأليفه لتفسيره استغرقت حوالي أربعين سنة، والشيخ ابن عاشور عالمٌ ناقدٌ، حرّ التفكير، قد وضع الحجة دليله، فتراه ينتقدُ الزمخشري (التحرير والتنوير: م1 ، ج1، 61- 62) ، ويعترض على الشاطبي[76] ويناقش حجّة الشافعي ( ). وقد طُبع تفسير (التحرير والتنوير) سنة (984 ام)، وصدر عن الدار التونسية للنشر، بتونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر في ثلاثين جزءاً .

يعتبر تفسير التحرير والتنوير في الجملة تفسيرا بلاغيًا بيانيًا عقلانيًا، يعتمد فيه على تحليله العقلي، ولا يغفل عن المأثور ويهتم به. ويعتمد ابن عاشور في تفسيره هذا على استقراء جميع جزيئيات الموضوع ومسائله التي يتعرض لبحثه ودراسته، لغويًا وبلاغيًا وفقهيًا واجتماعيًا وغير ذلك، يخضع كل ذلك للشرح والتحليل ليستنبط النتيجة من البحث.

تُوفِّي محمد الطاهر ابن عاشور عن أربع وتسعين سنة في ضاحية المرْسَى قرب تونُس العاصمة، يوم الأحد 13 من رجب سنة 1394هـ الموافق 12 من آب (أغسطس) 1973م. ووُري الثَّرى بمقبرة الزَّلَّاج.[77] رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنَّاته.

ونختم بهذا التفسير في العصر الحديث، لكونه من أشهر الكتب في هذا العصر، لا يُنكر ما قد أضافه للمسلمين، فكلُ يأخذ منه ويرد، فلا عصمة إلا لمن أنزل عليه القرآن العظيم، محمدٌ –صلى الله عليه وسلم– ومن سبقه من النبيين، ولنا في كل المراحل التاريخية التي مرت بها رحلة التفسير، بداية من مرحلة ما قبل التدوين، ومرحلة التدوين نفسها، إلى مرحلة العصر الحديث، إثراً تاريخياً إسلامياً نفخرُ به، ونعتز بمن سخره الله لخدمة كتابه، فما بيانه في بحثنا هذا هو إيضاح للمنهج التاريخي استقراءً وتحليلاً، ولا يسعنا إلا أن نقول في بحثنا هذا، التفسير من التأسيس إلى المعاصرة، ما أعظم ديننا الإسلام، وما أعظم القرآن العظيم الذي هو معجزة خاتم النبيين، ولا شك في حفظ الله لكتابه فهو الذي أنزله، وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه، وفي هذا نختم بحثنا ونسأل العلي القدير أن يجعلنا ممن يسمعون القول فيتعبون أحسنه، من تفسيرٍ لكتابه، وتطبيقٍ لأحكامه، والوقوف على حدوده، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

أعيد إلى ذاكرة القارئ الكريم ما ذكرته في أول البحث من أن الخاتمة تخصص عادة لأهم النتائج والتوصيات التي يصل إليها الباحث من خلال دراسته للموضوع وتعايشه في رحابه، ولعل من أهم النتائج التي توصلت إليها ما يلي:

1- إن نشأة علم التفسير ترجع إلى المعلم الأول والقدوة الأمثل محمد صلى الله عليه وسلم، فهو المؤسس لعلم تفسير كتاب الله والمبين له، ومنه استمد هذا العلم إلى عصرنا هذا.

---

[76] (**مقدمة مقاصد الشريعة الإسلامية**) ، (**المصطلح الأصولي** ، (259) ، م: 282، 283) ، (**الموافقات** ، (4/ 324)،

(**الاعتصام**، (1/ 265) (كل هذه المصادر منقولة من موضوع متابعات الدكتور فريد الأنصاري للإمام ابن عاشور لقطعية أصول الفقه).

2- على المفسر لكتاب الله أن يتحلى بصفات وآداب، كما يجب أن يتوفر فيه شروط ويمتلك العلوم التي تأهله لتفسير كتاب الله وتأويله تأويلاً صحيحاً.

3- لكل علم قواعد أساسية تبنى عليه العلوم الأخرى، وعلم التفسير يأخذ من القرآن ثم السنة ثم من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم جميعًا.

4- إن تاريخ التفسير مر بمراحل تأصيلية ومنهجية، مرورًا بعهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى عهد الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ثم إلى عهد التابعين لهم، ثم تم إكمال الخطى بالمراحل التفسيرية إلى عهدنا هذا.

5- إن النشأة التي كانت في القرون الخيرية، هي اللبنة الأساس لعلم التفسير ومنها يستمد، ويرجع إليها تاريخ التفسير عامة.

6- أبرز ما مر في عهد التابعين رضي الله عنهم، هو اتجاهان التفسير الذي ساروا عليه، وهما: خط التفسير بالمأثور، وخط التفسير البياني.

7- رسخ الإمام الطبري الأصول التفسيرية لمن أتى بعده، وهو أول من ألف تفسيرًا جامعاً على طريقة التفسير الأثري النظري، فكان عمدة في التفسير وكل من ألف بعده اقتفى أثره.

8- إن المدارس التفسيرية التي جاءت بعد مدرسة الطبري، كانت متنوعة كل بحسب فنه، فنشأت المدرسة البيانية والعقدية والفقهية والمتصوفة والوعظية ومنهم من جمع بين أكثر من فن.

9- إن امتداد علم التفسير لم ينتهي بانتهاء القرون الخيرية ومن يليها، بل ما زال مستمرًا حتى في عصرنا الحديث، وكان في زمن الشيخ محمد عبده في بداية القرن التاسع عشر هجري.

10- إن تاريخ التفسير من التأسيس إلى المعاصرة لا يسعه بحث مصغر وإنما هي ومضات لتثبيت ما مر عليه علم التفسير استقراءً وتحليلاً.

المراجع:

أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ)، **البحر المحيط في التفسير**، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: 1420 هـ

أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ)، **البرهان في علوم القرآن**، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، 1376 هـ - 1957 م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه.

أبي العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، شيخ الإسلام، **مقدمة في أصول التفسير**.

أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: 1094هـ)، **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، المحقق: عدنان درويش - محمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت

إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ)، **الموافقات**، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م

إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، **الاعتصام**

- الإمام فخر الدين الرازي، تفسير **(مفاتح الغيب)**

- البخاري، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه.**
- أبو داود السجستاني، **سنن أبي داود**
- ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**

ابن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن** بتحقيق: شاكر

ابن فرحون، **الديباج المذهب**

- ابن كثير، **البداية والنهاية**، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى.
- ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**
- ابن كثير، **عمدة التفسير**
- البيهقي **دلائل النبوة**
- الترمذي، **سنن الترمذي**
- القاسمي، **محاسن التأويل**
- القشيري، **لطائف الإشارات**، بتحقيق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة

-المزي، **تهذيب الكمال**

حسن عبد الجليل عبد الرحيم، **نهج ابن عاشور في الاحتجاج بالقراءات القرآنية**، بحث منشور في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد21 – العدد الأول -2005

- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، **الكشاف**
- جلال الدين السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**
- جلال الدين السيوطي، **طبقات المفسرين**
- خالد عبد الرحمن العك، **أصول التفسير وقواعده**
- خير الدين الزركلي، **الأعلام**
- سهل بن عبد الله، **تفسير القرآن العظيم** مطبعة السعادة، سنة 1908م
- صلاح عبد الفتاح الخالدي والدكتور حذيفة صلاح الخالدي، **المدخل إلى علم التفسير في أصول التفسير** دار النفائس للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1441 هـ/2020م
- صلاح عبد الفتاح الخالدي، **مناهج الدارسين بمناهج المفسرين.**
- عادل نويهض، **معجم المفسرين**
- عبد الرزاق بن همام الصنعاني، **تفسير عبد الرزاق**، تحقيق ودراسة د. محمود محمد عبده –كلية الأزهر
- علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، **كتاب التعريفات**، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة: الأولى 1403هـ -1983م دار الكتب العلمية بيروت -لبنان.
- **فتاوى ابن تيمية**

فريد الأنصاري، **المصطلح الأصولي عند الشاطبي**

- فضل عباس، **التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث**
- فيليب حتي، **الإسلام منهج حياة**
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**
- محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ)، **لسان العرب**، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ
-محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، **التحرير والتنوير** «**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**» لناشر: الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: 1984 هـ

محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، **تراجم الأعلام**

- محمد رشيد رضا، **تفسير المنار**
- محمد حسن الذهبي، **التفسير والمفسرون**
- محمد الحمود النجدي، **القول المختصر المبين في منهاج المفسرين**
-محمد عبد العظيم الزرقاني، **مناهل العرفان**
-محمد الشربيني الخطيب، **تفسير السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير**
-محمد عبده، **تاريخ الأستاذ الإمام**
- محمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبو القاسم، نجم الدين "**إيجاز البيان عن معاني القرآن**".
- محمود الطحان، **تيسير مصطلح الحديث**

محمد محفوظ، **تراجم المؤلفين التونسيين**

- مساعد بن سليمان الطيّار، **التفسير اللغوي للقرآن الكريم**.
- مساعد بن سليمان الطيّار، **التحرير في أصول التفسير**، الطبعة الخامسة 1440هـ / 2019م، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي
- مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**
- **مسند الإمام أحمد** بتحقيق شعيب الأرناؤوط

مشرف أحمد بن أحمد بن جمعان الزهراني، **أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور في كتابه التحرير والتنوير (رسالة دكتوراه)**